



(1)

رحلة ليست كبقية الرحلات، لا من حيث الوجهة أو الهدف، ولا من حيث الأشواق والمشاعر؛ هكذا هي الحياة، وبعد طول انتظار كانت الوجهة إلى غزة في أكتاف بيت المقدس، وكان الهدف تجسيد الأخوة الإيمانية؛ نصرة لأهلنا المرابطين هناك، والإسهام في كسر الحصار الجائر الذي تواطأت عليه القوى الدولية والإقليمية لعدة سنوات، فعانت منه هذه المدينة الم الرابطة أيمًا معاناة!

هذه الأرض كانت أرضاً للرباط على مر العصور، وكان أئمَّة الإسلام يرابطون فيها، وها هو ذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «فكانَتْ غَزَّةُ وَعَسْقَلَانُ وَعَكَا.. كَانَتْ ثَغُوراً.. وَكَانَ الصَّالِحُونَ يَأْتُونَ الثَّغُورَ لِأَجْلِ الْجَهَادِ وَالْمَرَابِطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْمَرَابِطَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنِ الإِقَامَةِ بِمَكَّةِ وَالْمَدِينَةِ مَا أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ خَلَافَةً، فَكَانَ صَالِحُوَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السَّلْفِ يَرَابِطُونَ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ؛ كَالْأَوْزَاعِيِّ وَإِسْحَاقِ الْفَزَارِيِّ وَمُخْلَدِ بْنِ الْحَسِينِ وَإِبْرَاهِيمِ بْنِ أَدْهَمِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَبَارِكِ..»[1].

ذهبنا إلى غزة وكان وهج المشاعر يهز القلوب هزاً، وأشواق الحب تحدونا في مسirنا إلى تلك الأرض المباركة، وكلما اقتربنا من معبر رفح ازدادت الأسواق، وتتسارعت الأنفاس، وكانت أري أصحابي يغالبون دموعهم. أعيننا تتطلع إلى غزة، وقلوبنا تهفو هناك حيث المسجد الأقصى مسرى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

يَا اللَّهُ... أَحْقًا سِنَّةٌ، أَرْضٌ، الْيَاطِ وَالْعَزَّةِ..؟!

منذ أن عزمت على هذه الرحلة كنت أتأمل الهدف: (كسر الحصار)، فقلت في نفسي: إنَّ أبطال غزة لا يضرهم الحصار وتكلب الأمم عليهم، بل سيزيدهم قوة وثباتاً، ومن كان مع الله - عز وجل - فإنه ناصره ومعينه، قال جل شأنه: {إنَّ

يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: 160]، وقال سبحانه وتعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بِلَجْوَا فِي عُتُوقٍ وَنُفُورٍ} [الملك: 21 – 20]، وقد تأملت حديث الطائفة المنصورة الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك). فوجدت أنَّ لتلك الأرض المقدسة نصيباً وأفراً من هذا الحديث، ففي بعض رواياته سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأين هم؟ فقال: (بيت المقدس، وأكناfe بيت المقدس)[2].

ولهذا؛ فإنني في الحقيقة لم آت لكسر الحصار عن غزة، وإنما يممـت هناك محاولاً كسر الحصار عن نفسي، إنه حصار الوهن والعجز، وحصار القعود وحب الدنيا، لقد كـبـلـنا الوهن من كل مكان، وجـلـلـنا من الأخـمـصـ إلى النـاصـيـةـ؛ وهـنـ سـيـاسـيـ وإـعـلـامـيـ، وعـجـزـ اـجـتمـاعـيـ وـثـقـافـيـ، لـقـدـ أـنـهـكـتـنـاـ ثـقـافـةـ الـهـزـيمـةـ وـالـتـطـبـيـعـ وـالـاسـتـسـلـامـ، وـأـحـاطـتـنـاـ مـنـ وـرـائـنـاـ وـأـمـامـنـاـ فـيـ أـكـثـرـ الـمـيـادـيـنـ، حـتـىـ اـسـتـمـرـأـ بـعـضـنـاـ العـجـزـ وـالـخـذـلـانـ!

(2)

وصلنا - بحمد الله تعالى - إلى غزة الشموخ والعز، وأول ما يستثيرك في هذه الأرض المقدسة أنَّ عبق الشهادة يعمر ذلك الشريط الممتد على طرف البحر المتوسط، ومعاني البطولة والرجلة شامخة في كل الميادين، حتى إنني لم أزر أحداً إلا يقولون لي هذا البيت استشهد فيه شهيد أو شهيدان أو ثلاثة، بل زرت بيت العالم المجاهد نزار ريان - رحمة الله تعالى - وأخبروني أنه لقي الله هو وزوجاته الأربع ومن كان حاضراً من أبنائه، فكان عدد من قضى نحبه في هذا البيت المبارك سبعة عشر شخصاً، رفع الله درجاتهم في منازل الشهداء، ولو كانت الشجاعة والبذل في سبيل الله تستری لم أبرج منزلهم! أسأل الله - تعالى - أن يرفع درجاتهم في جنات النعيم.

ولا تكاد تجد أسرة في قطاع غزة إلا وفيها أسير أو أكثر ما زالوا أو قد مرروا على سجون الاحتلال، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، وإذا كان العدو الصهيوني يهدف إلى ترويض الشعب وكسر إرادته بكثرة القتل والاعتقال والهدم؛ فإن المحن وأنفاس الجهاد وآيات آل عمران والأطفال تربى المجتمع على الإصرار والثبات، ولهذا نجد أن أهل غزة لا تزيدتهم الجراحات والتضحيات إلا عزة وأنفة.

ومن المواقف التي استصغرت نفسي عندها: أنني رأيت طفلاً في العاشرة من عمره فقلت له: في أي صف تدرس؟ قال: في الصف الرابع. فقلت له مشجعاً أريد أن أعلى همته: ستصبح طبيباً أو مهندساً إذا كبرت بإذن الله؟ فقال بكل عفوية: ما يهم! فلما رأى الاستغراب في وجهي قال: بدبي أستشهد!

فقل لي بربك: شعب بهذا الإصرار والأنفة والشموخ أتراه ينكسر؟!

شعب أطفاله رجال، ورجاله جبال، هل سيقبل مشاريع بيع الأرض والتغريط في الحقوق؟!

وأذكر أنني رأيت أحد الأبطال الذين أصيـبـواـ بـإـعـاقـةـ دائـمـةـ جـرـاءـ القـصـفـ الـيهـودـيـ العـشوـائـيـ عـلـىـ غـزـةـ، فـأـرـدـتـ أـنـ أـصـبـرـهـ وأـبـشـرـهـ بـفـضـلـ اللهـ عـلـيـهـ، وـإـذـاـ بـهـ يـتـلـوـ قـوـلـ الحقـ - تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ - : {إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مَّثُلُهُ وَتَلْكَ الْأَيَّامُ تُنَادِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَخَذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 140]، ثم رأيت دموعه تتتساقط، فقلت له: لعل قدميك سبقتاك إلى الجنة فاصبر واحتسـبـ. فقال: والله ما بـكـيـتـ عـلـيـهـ، لكنـيـ أـبـكـيـ لـأـنـيـ لـمـ أـتـخـذـ منـ الشـهـداءـ فالـشـهـادـةـ اـصـطـفـاءـ! ثم أـخـذـ يـوصـيـنـيـ حتـىـ اـسـتـحـيـتـ منـ نـفـسـيـ!

ولا تظنن أنَّ هذه القمم السامة وأنَّ هذه التضحيات لخواص الناس، لا والله! فعامة الناس عندهم من الحمية والغيرة والإقبال على العطاء ما يعجز القلم عن بيانه، وقد زرت محطة صغيرة لتحليل المياه تحت الإنشاء، وفيها عمال يشتغلون فيها، فسلمت عليهم ودار بيبي وبينهم حديث جنبي عابر، فاستأذن أحدهم بالانصراف، فطلب منه صاحبه الانتظار قليلاً، فاعتذر؛ لأنَّه سيذهب لقضاء بعض حاجات أهله قبل أن يذهب إلى الرباط على ثبور المدينة!

ومن المشاهد التي لا تخطئها العين في غزة: مشاهد المنازل والمؤسسات المدمرة، وهي تدل على صلف وجبروت العدو الصهيوني من جهة، وعلى حجم التضحية والمعاناة التي يعانيها الشعب من جهة ثانية، وعلى صلابته وقوته وإرادته واستعصائه على الترويض.

لقد أدركت أنَّ التضحية والشجاعة ليست خطبة تصديح بها المنابر، ولا قصيدة يتغنُّى بها الشعراء، ولا دروساً يتزين بها الداعية أمام الناس؛ بل هي موقف تسمو به النفس، وسجية تحلق في ظلال العزيمة والعطاء، بلا تكلف أو تصنع. وأحسب أنَّ من أسرار شموخ أولئك الأبطال: أنَّ قادتهم يسابقون إخوانهم في مقدمة الصفوف، فشموخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي ونزار ريان ومحمود صيام.. وغيرهم كثير - رحمهم الله أجمعين -؛ كان من أعظم دروس التأسي في التضحية والإقدام.

ولهذا قلت لإخواني في هذه الزيارة: إنني ما جئت إليكم معلماً أو ناصحاً، معاذ الله، بل جئتكم متعلماً، أتربي على أيديكم، لعلي أقتبس من نور العزة شعلة من ضياء؛ لكن هيهات هيهات أن ينجح من يتطلب في الماء جذوة نار!

وقدِيمًا كنت أسمع من بعض الدعاة: أنَّ الأمة إذا نهضت من كبوتها، واستيقظت من غفلتها؛ تحررت القدس، فلما دخلت غزة ورأيت مساجدها ومرابطيها وأبناءها البررة، أيقنت أنَّه إذا نهضت فلسطين نهضت الأمة!

(3)

لقد صليت في عدد من المساجد في قطاع غزة، وسررني جداً إقبال الشباب على المساجد وحضور الجماعات والعنابة بحفظ القرآن العظيم، ولا شك أنَّ هذا من أعظم العدة على النصر، قال الله - تعالى - : {بِإِيمَانِ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أَقْيَتُمْ فِتْنَةً فَأَبْتُقُوا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأనفال: 45] ، ولهذا كانت وصية الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد مخالفيه بالقرآن، فهو العُدُّة والزار، قال تعالى {وَجَاهُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان: 52]، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: {إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِضَعْفِهَا، بِدُعُوتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ}[3]، ولهذا كان أبو الدرداء - رضي الله عنه - يقول لأصحابه قبل القتال: (عمل صالح قبل الغزو؛ فإنكم إنما تقاتلون بأعمالكم)[4].

إنَّ معركة فلسطين هي (معركة المساجد)، ابتداء بالمسجد الأقصى المبارك قلب الصراع مع العدو الصهيوني، مروراً بالمساجد التي درج اليهود على قصفها واستباحتها وتدميرها، وكلما تعلقت القلوب بالمسجد وتعفرت الوجوه بترابها ذلاً وإخباراً لربها - سبحانه وتعالى -؛ تحقق موعود الله بالنصر والتمكين. والنفوس إنما تزكي وتشرف بعملها، وليس بمجرد بقائهما في الأرض المقدسة، ولهذا لما كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي - رضي الله عنهما - أن هلم إلى الأرض المقدسة، كتب إليه سلمان: (إنَّ الأرض المقدسة لا تُقدَّس أحداً وإنَّما يقدس الإنسانَ عمله)[5].

إنَّ الترف والتتعلق بالدنيا من أعظم العوائق التي تقيد المجتمع وتجعل أبناءه أرقاماً هامشية لا قدر لها من موازين الأمم، ولا قيمة لها في ميادين الصراع. أما إذا سمت النفوس بإيمانها وتعلقت بكتاب ربها وتخلصت من أثقال الدنيا؛ رأيت أثر ذلك في سرعة الإقبال والتسابق على العطاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان

فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيجة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه).[6]

أسأل الله - تعالى - أن يستخدمنا لنصرة دينه، وأن يرزقنا الصلاة في المسجد الأقصى مطهراً من دنس اليهود.

[1] مختصر الفتاوى المصرية: (2/60).

[2] أخرجه: أحمد رقم (22320). والطبراني في الكبير، رقم (7643)، وحديث الطائفة المنصورة له روايات كثيرة، وعده جمع من أهل العلم من المتواتر، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (1/169)، وقطف الأزهار المتناثرة من الأخبار المتواترة، رقم (81).

[3] أخرجه: النسائي في السنن الكبرى، كتاب الجهاد، باب الاستنصرار بالضعيف (4/305)، رقم (4372).

[4] أخرجه: ابن المبارك في كتاب الجهاد، رقم (5)، وبؤب له البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه، فقال: (باب عمل صالح قبل القتال، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم) (6/24).

[5] أخرجه: مالك في الموطأ (2/235)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (4/69)، وانظر: كشف الخفاء (1/126).

[6] أخرجه: مسلم في كتاب الجهاد، رقم (1889).

مجلة البيان العدد : 309

المصادر: